

## المنهج الهيكلي والمنهج الوظيفي

### تمهيد:

يعدّ المنهج البنوي الوظيفي من أولى المناهج التي وظفت في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية المجاورة له عند البدايات الأولى لتشكيلها وقيامها كعلوم مستقلة بذاتها، متأثرة إلى حدّ كبير بنموذج العلوم الطبيعية. يقوم توظيف واستخدام هذا المنهج على قناعة مبدئية لدى الرواد المؤسسون تتلخص ضمن مقولة "المماثلة العضوية". المتضمنة تشبيه النظام الاجتماعي (المجتمع) بالكائن العضوي الحي من حيث الهيكل أو البناء باعتباره كل يتشكل من أعضاء ومن حيث الوظائف والأدوار التي تقوم بها هذه الأعضاء (الأجزاء) ضمن مبدأ التكامل الذي يقتضيه الكل. تكرست هذه الرؤية النظرية "المماثلة العضوية" لدى كافة من عرفوا بالمؤسسين الأوائل لعلم الاجتماع جراء تأثرهم بنجاحات العلوم الطبيعية. فراحوا ينظرون للمجتمع والمؤسسات الاجتماعية وكل ما هو اجتماعي انطلاقاً من هذه الرؤية التي تحيل المجتمع في تعقيداته وتنوع أبعاده إلى مجرد هيكل أو بناء عام مشكل من أجزاء أو أعضاء لها وظائف وأدوار تؤديها لضمان بقاء واستقرار وتوازن المجتمع ككل.

وكان من المنطقي أن يترتب عن مثل هذه الرؤية النظرية، رؤية منهجية لدى المؤسسون أنفسهم، تحدد الطريقة التي ينبغي أن تدرس وتحلل بها الظواهر الاجتماعية. ومن هنا أصبح المنهج الهيكلي الوظيفي منهجاً مفضلاً في علم البحث الاجتماعي.

### الخلفية الفلسفية للمنهج الهيكلي الوظيفي:

عند تتبعنا لسياق تشكل المنهج الهيكلي الوظيفي نجد أصوله عائدة إلى:

#### النزعة العلمية: ممثلة في :

- الفلسفة الوضعية التي أوحى من خلالها "أوغيست كومت" بفكرة أنّ الظاهرة الاجتماعية محكومة بقوانين ثابتة مثلها مثل الظواهر الطبيعية وبالتالي ينبغي إخضاعها لنفس المنهج الذي تخضع له الظواهر الطبيعية.
- العقلانية والواقعية الاجتماعية التي برزت مع "أميل دوركايم" الذي انطلق من رؤية نظرية تعتبر الحقائق الاجتماعية ذات وجود خارجي مستقل عن الأفراد وأنّ لكل ظاهرة وظيفة تؤديها لصالح الكل الاجتماعي.

#### الرؤية العضوية للمجتمع: ممثلة في

- فلسفة "هربيرت سبنسر" من خلال مقولة المماثلة العضوية أين يشبه المجتمع بالكائن الحي حيث تتكامل أعضاؤه (المؤسسات) لضمان استمرار الجسد ككل (المجتمع).

### المفاهيم القاعدية للمنهج الهيكلي الوظيفي:

يقوم المنهج الهيكلي الوظيفي كما يشير إليه مسماه على مفاهيم قاعدية محورية وهي:

- البناء أو النظام، الكل الذي يضم مجموعة أجزاء مترابطة
- الوظيفة، التي يفترض من كل جزء القيام بها.
- الدور، الذي يحدد المكانة داخل النظام.
- التوازن والاستقرار، باعتبارهما هدفين لكل وظيفة يقوم بها كل عضو.
- الخلل الوظيفي، يشير إلى حالة غير طبيعية في النظام نتيجة ضعف أو توقف عضو عن أداء وظيفته.

### الافتراضات الأساسية للمنهج الهيكلي الوظيفي:

يقوم المنهج الهيكلي الوظيفي على مجموعة من الفرضيات على شكل قناعات مبدئية يتفق عليها ولو نسبياً كل من يتبنى المنهج أو يوظفه في البحث الاجتماعي.

أبرز هذه الفرضيات هي:

- **النسق المتكامل:** يُنظر للمجتمع كجملة من الأجزاء المترابطة (الأسرة، الدين، التعليم، الاقتصاد)؛ بحيث لا يمكن فهم أي جزء منها بمعزل عن علاقته بالأجزاء الأخرى.
- **التوازن والاستقرار:** يفترض أن النسق الاجتماعي يميل طبيعياً نحو حالة من التوازن. أي تغيير في جزء معين يتبعه بالضرورة تعديل في الأجزاء الأخرى لاستعادة الاستقرار ومنع الانهيار.
- **الوظيفية:** لكل عنصر في البناء الاجتماعي وظيفة إيجابية تساهم في بقاء النظام. إذا استمرت ظاهرة معينة (حتى لو بدت سلبية كالجريمة)، فذلك لأنها تؤدي دوراً ما في الحفاظ على النسق.
- **الإجماع القيمي:** يعتمد استقرار المجتمع على وجود قيم ومعايير مشتركة يتفق عليها الأفراد، وهي التي تضمن الحد الأدنى من التماسك والتضامن.
- **التكامل الوظيفي:** الأجزاء المختلفة للمجتمع تعمل بانسجام وتكامل، والنزاع أو الصراع يُعتبر حالة "مرضية" أو خللاً عارضاً يسعى النسق لتجاوزه.

### مثال تطبيقي:

- عندما نحاول مثلاً تفسير ظاهرة الغش في الامتحان من وجهة نظر سوسيولوجية وفقاً للمنهج الهيكلي الوظيفي فنطلق من:
- اعتبار الجامعة أو المدرسة مؤسسة (جزء من المجتمع)
  - هيكلها الإدارية ببعديها التنظيمي والبيداغوجي
  - وظيفتها التكوينية، التعليم، نقل المعارف، تخريج الإطارات
- نطرح سؤال: لماذا يلجأ بعض الطلبة أو التلاميذ إلى الغش في الامتحان؟
- نحاول أن نجيب على السؤال (صياغة فرضية) انطلاقاً من وجهة نظر المنهج (نموذج التحليل) الهيكلي الوظيفي فنقول:
- " الغش في الامتحان سلوك يعبر إلى حد كبير عن الخلل الوظيفي على مستوى الجامعة أو المدرسة"

### أهم الانتقادات الموجهة للمنهج:

- تعرض المنهج الهيكلي الوظيفي لانتقادات حادة، خاصة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، مما أدى إلى تراجع هيمنته لصالح نظريات الصراع وما بعد الحداثة. إليك أبرز هذه الانتقادات:
1. ركّز المنهج الهيكلي الوظيفي بحكم الرؤية النظرية التي انطلق منها وبشكل مفرط على **الاستقرار والتوازن**، واعتبر الصراع الاجتماعي حالة "مرضية" أو خللاً عارضاً، مما جعله عاجزاً عن تفسير التغيير الاجتماعية في شتى مظاهره: الثورات، التحولات الجذرية، والنزاعات التطبيقية.
  2. اتهم المنهج بأنه أداة أيديولوجية للحفاظ على الوضع الراهن، إذ اعتبرت مقولة "كل جزء له وظيفة"، مقولة تبرر وجود الكثير من الأزمات والمشكلات في المجتمع (الفقر أو الظلم الاجتماعي ..) باعتبارها ضرورة لاستمرار النظام.
  3. تفسير "الأسباب" من خلال "النتائج". كقول بأن الدين موجود لأنه يحقق التماسك، بدلاً من البحث في أسباب نشوئه.
  4. ركز المنهج على "البنى" و"الأنظمة" لدرجة غيّب فيها دور **الإنسان كفاعل اجتماعي له الحرية فيما يقرره**، ليصبح مجرد رقما ضمن نظام قيمي مجمع عليه.
  5. بالغ أصحاب المنهج في فكرة الانسجام عندما افترضوا عبر "بارسونز" وجود إجماع قيمي شامل في المجتمع، متجاهلين حقيقة أن القيم غالباً ما تُفرض من قبل الطبقات المسيطرة أو القوى السياسية.

6. بالنظر إلى غموض بعض مفاهيمه ومستواها المغالي في التجريد ، مثل "التوازن العام " هناك صعوبة يواجهها في الاختبار التجريبي والقياس في الميدان ما يجعلها أقرب للفلسفة الاجتماعية منها للعلم التجريبي.